عبادة الكواكب في بلاد كنعان

الخوري جورج كامل*

حرّمت التوراة على اليهوديّ أن يرفع عينيه إلى السماء، لئلا يُجتذَب إلى عبادتها والسجود للأجرام السماويّة، كالشمس والقمر وجميع «قوّات السماء» أي الكواكب والنجوم[1]. وهي عبادة قد يكون وجدها بين الكنعانيّين عندما دخل «الأرض» أو تأثّر بها في بلاد بابل. يذكرها فيلون الجبيليّ في كلامه على «صفاشمين» (Ζοφασημίν)، الإنسان الذي يتأمّل السماء، كما في قوله إنّ الفينيقيّين الأوائل لم يعترفوا بآلهة سوى الآلهة الطبيعيّة الشمس والقمر والكواكب الأخرى، والعناصر وكلّ ما يتعلّق بها[2].

(*) أستاذ في علم التاريخ.

(1) تثنية ٤: ١٩؛ ١٧: ٣؛ إرميا ٨: ١ـ ٢؛ ٢ ملوك ٧: ١٦؛ ٢١: ٣؛ ٢٣: ٤ـ ٥؛ ٢ أيّام ٣٣: ٣، ٥؛ أيّوب ٣١: ٢٦ـ ٢٨؛ حكمة ١٣: ١ـ ٣:

« La persistance de ces cultes astraux est même attestée dans la Michna ABODAH ZARAH (Idolatrie) III: 3, «Si un homme trouve des objets sur lesquels il y a une représentation du soleil, une représentation de la lune ou une représentation d'un dragon, il doit les jeter dans la mer Morte (littéralement: la mer du sel)», Paul Petit, *La lune, mythes et rites*, Seuil, Paris, 1962, p.135 + (6);

كذلك فإنّ أشعيا ٣: ١٨ يعتبر الزينة التي تدلّ على الشموس والأهلّة (בַּשַּׁהֲרֹנִים) محرّمة.

(2) EUSÈBE DE CÉSARÉE, *La préparation évangélique*, livre I, «Sources chrétiennes», Cerf, Paris, 1974, I, 10, 2; I, 9, 5 - 29.

هذا ما رآه الكنعانيّ في القبّة السماويّة، كائنات خالدة بعيدة المنال، ممّا يتناسب مع الدين الذي، على خلاف البحر، يُبنَى على عبادة آلهة لا تخضع لسلطة الإنسان، يقوم هذا الأخير باسترضائها بمحرقات، يعتبر فرفوريوس (Porphyre) أنّها ابتدأت في بلاد النيل. فكانت الأعشاب في البدء تحرق «للآلهة السماويّة» بحجّة أنّها ظهرت إلى الوجود قبل الأشجار والبهائم[٣].

نجد صدى هذه العبادة في إحدى قصص أوغاريت الميثولوجيّة ـ الطقسيّة، «مولد الآلهة الوسيمة»؛ فبعد إيصال البشرى بولادة «شحر وشلم»[٤] إلى أبيهما البشريّ، يطلب هذا الأخير رفع تقدمة للشمس العظيمة وللكواكب[٥]. كما أنّ اللوحة الطقسيّة المعنونة «د ب ح. ص ف [ن]» (RS 24.643)، أي «ذبيحة صافون»، تدرج في لائحتها الإلهيّة مع آلهة أوغاريت الساميّة والحوريّة كلّ من «أرص. وش م م» (الأرض والسماوات)، «ي ر خ» (القمر)، «ش ف ش» (الشمس)، «ي م» (البحر)[٦].

ومن بين الآلهة التي جعلها القرطاجيّون شاهدة في نصّ المعاهدة التي عقدت بين هنيبعل والمقدونيّين، سنة ٢١٥ ق.م.، ورد ذكر الشمس والقمر والأرض[٧].

---

(٣) *Ibid.*, I. 9. 7 - 11.

(٤) شحر وشلم هما كوكبا الفجر والغسق اللذان وُلِدَا لله (إيل) من امرأتيه البشريّتين.

(٥) «ش أ. خ د ب. ل ش ف ش. ر ب ت. و ل ك ب ك ب م. ك ن ت [ ]».
VIROLLEAUD, «La naissance des dieux gracieux et beaux», in *Syria*, 14, 1933, Pl. XVIII; A.HERDNER, *Corpus des tablettes en cunéiformes alphabétiques découvertes à Ras Shamra-Ugarit 1929 - 1939*, Geuthner, Paris, 1963, n° 23; CAQUOT, SZNYCER, HERDNER, *Textes ougaritiques*, tome I, Cerf, Paris, 1974, p.376.

(٦) Cf.J.M.TARRAGON, *Le culte à Ugarit*, Cahiers de la revue biblique, 19. J. Gabalda, 1973, p.168; VIROLLEAUD, «Les nouveaux textes mythologiques et Encrgiques de Ras Shamra», in *Ugaritica*, V, 1968, p. 580

(٧) يوسف حوراني، لبنان في قيم تاريخه، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٢، ص ٨٢؛
S. MOSCATI, *L'épopée des Phéniciens*, Fayard, Paris, 1971, p.194.

ويستشهد أوسابيوس القيصريّ بأفلاطون الذي يعتبر، «برأيه»، أنّ الإغريق الأوائل اقتصرت عبادتهم على الشمس والقمر والأرض والنجوم والسماء، التي تشكّل اليوم آلهة كثيرين من البربر ـ أي الأغراب ومنهم الفينيقيّين ـ إذ وجدوها في حركة دائمة فدعوها θεοι (آلهة)، وهي عبارة يونانيّة تشتقّ من θέειν التي تعني جرى وسار[٨]. غير أنّ لفظة «ديو» في أكثر اللغات الأوروبيّة (ومنها θεος اليونانيّة)، كما يعتبر الأب مرتين اليسوعيّ، مأخوذة من اللفظة السنسكريتيّة (لغة الهند القديمة) «ديف» التي تعني «السماء»[٩]. كذلك فإنّ كثير من القبائل البدائيّة يستعمل اسم السماء بلغته للدلالة على إلهه السماويّ[١٠].

وقد حافظ الساميّون الغربيّون على هذه العبادة حتّى زمن متأخّر، وغم تعاقب الدول والثقافات. يذكر رينيه ديسو أنّ «في البقعة التي تمتدّ بين طرابلس وأنطاكية، لا يزال النصيريّون يحتفظون بمجمع حقيقيّ للآلهة وقد أطلقوا عليها أسماء إسلاميّة مستعارة: علي ومحمّد وسلمان الفارسيّ. والحقيقة أنّ هذه الأسماء الثلاثة تمثّل السماء والشمس والقمر. ومع ذلك، فإنّ بعض أنصار هذا المذهب يضعون الشمس على رأس هذه القائمة ويزعمون أنّها ترمز إلى ظهور علي، وهؤلاء يسمّون الشماليّة أو الشمسيّة. أمّا الذين يضعون القمر في أوّل هذه القائمة وينظرون إليه إشارة إلى ظهور علي فيسمّون القمريّة»[١١].

---

(٨) EUSÈBE, *op.cit.*, I, 9, 12. 14.

(٩) الأب مرتين اليسوعيّ، تاريخ لبنان، ترجمة رشيد الخوري الشرتوني، دار مارون عبّود، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٦٨ + (٦).

(١٠) أنظر ديورانت، قصّة الحضارة، م ١، ج ١، ترجمة د. زكي نجيب محمود، نشر الإدارة الثقافيّة في جامعة الدول العربيّة، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٠٣.

(١١) ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٥٠.

النجمة

لقد كانت النجمة أقدم رمز مكتوب أو مصوّر أشارت إلى السماء أو قوّات السماء، فلُفظت بالسومريّة آنا أو آنو (ANA, ANU) أو رمزت إلى الألوهة فقرئت دينجير (DINGIR) وتُرجمت إلى الأكاديّة بعبارة إلّو (ELLU) التي تعني الضياء[١٢]. لكن، لافتقار النقوش إلى نصوص، لا يمكن مثلاً التأكيد بأنّ النجمة الكبيرة المثمّنة الشعاعات التي وجدت منقوشة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، على حائط في تليلة غسّول، في وادي الأردن، تدلّ على ألوهة فلكيّة[١٣]. غير أنّنا نجد نجمة مماثلة في حفريات تل مرديخ ـ إبلا، مصوّرة على أسطوانة من الخزف (السيراميك) تتوسّط إلاهة أنثى تحمل بيدها الصليب المصريّ «عنخ»، رمز الحياة، وإله للعاصفة قد يكون بعل[١٤]، دالّةً بذلك، إمّا على صفة الألوهيّة التي يتمتّع بها هذا الثنائيّ أو على مثلّث إلهيّ (triade) يتألّف من السماء ـ النجمة، والأرض ـ الإلاهة التي تعطي الحياة، وابنهما إله العاصفة.

نجد هذه النجمة أيضًا بين ما خلّفه الفينيقيّون من آثار في كلّ جالياتهم في حوض البحر الأبيض المتوسّط[١٥]، ونلاحظ الشبه الكبير بين نجمة مدينة إبلا المذكورة وتلك المصوّرة على صحنين من البرونز يعودان، بحسب رأي ساباتينو موسكاتي (Sabatino MOSCATI) إلى الفنّ الفينيقيّ[١٦]، واحد في نمرود من أعمال بلاد الرافدين وآخر في

(١٢) Cf.M.ELIADE, *Traité d'histoire des religions*, P.B.P., 312, Paris, 1979, p.66 + (1).

(١٣) Cf.CAQUOT, *Histoire des religions*, tome I, Enc. de la Pléiade, Gallimard, Paris, 1970, p.308.

(١٤) Cf. P.MATTHIAE, «Empreintes d'un cylindre paléosyrien de Tell Mardikh», in *Syria*, 46, 1969, pp.1 -43, fig. 1 et 3, p.3 et 26.

(١٥) Cf. J.MAZEL, *Avec les Phéniciens*, LAFFONT, Paris, 1977, p.36, 37.

(١٦) MOSCATI, *op.cit.*, p.103

أولمبيا من أعمال اليونان[١٧].

وقد تكون لفظة ἄστρον اليونانيّة (نجم) تتحدّر من اسم عشتروت ـ عشتر ـ أسترته (Ἀστάρτη)، خاصّةً أنّ النجمة كانت شعارًا للإلاهة عشتروت المرادفة لأفروديت (Ἀφροδίτη) معبودة الإغريق[١٨]. هذا وقد اعتُبرت عشتروت ابنةً للسماء οὐρανὸς (أورانوس)[١٩] وحملت لقب «ملكة السماوات»[٢٠] (𐤁𐤏𐤋𐤕 𐤔𐤌𐤉𐤌). أمّا في بلاد ما بين النهرين فكان يرمز إليها بكوكب الصبح في الشتاء وكوكب المساء في الصيف[٢١]، وفي القرن التاسع عشر ق.م. ورد اسمها في النقوش الأشوريّة «اشتار»، مرفقًا بعبارة النجمة[٢٢]، وادمجت بها، بعد أفروديت، ڤينوس (الرومانيّة) والزهرة (العربيّة) واعتبرت إلاهة للحبّ الجنسيّ خاصّةً أنّ رمزها «كوكب الزهرة» كان رمزًا جنسيًّا. وعُبدت في «أفقا» (في بلاد جبيل) على صفة نجم[٢٣]، وما زالت لغاية اليوم «عذراء أفقا» تسمّى «السيّده زهره».

لكنّها تحت التأثير المصريّ، حيث أدمجت عشتروت بايزيس

---

(١٧) *Ibid.*, p.104, 109 - 110,

«ترجع الصلات بين صور وأولمبيا ـ حيث وجدت تحف كثيرة من البرونز الفينيقيّ ـ إلى أوائل القرن السادس ق.م.»، صُمّن عرب، صور حاضرة فينيقيا، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٢٤.

(١٨) EUSÈBE, *op.cit.*, I, 10, 31 - 32.

(١٩) *Ibid.*, I, 10, 22.

(٢٠) إرميا ٧: ١٨؛ W.GESENIUS, «𐤁𐤏𐤋𐤕», In *A Hebrew and English lexicon of the Old Testament*, BROWN, DRIVER and BRIGGS, Oxford, 1968, p.573.

(٢١) M.-J. LAGRANGE, *Etude sur les religions sémitiques*, 2e édition, Victor LECOFFRE, Paris, 1905, p.137 - 138.

(٢٢) Cf. DEVAUX, «El et Baal, le dieu des Pères et Yahweh», in *Ugaritica*, VI, 1969, p.503 - 504.

(٢٣) أنظر يوسف أوفرد، «في وحدة عشتروت أو عشترت والسيّارة الزهرة»، المشرق، ١٠، ١٩٠٧، ص ٦٠٤ـ ٦٠٥.

وحاطور أصبح القمر شعارًا لها[٢٤]. وربّما لهذا دعيت في شرق الأردن (עשתרות קרנים) (عشتروت قرنايم)[٢٥]، إذ قد يشير القرنان إلى الهلال.

القمر

قد يكون القمر هو الأقدم، بين كلّ «قوّات السماء» التي عبدها الساميّون، رافق الصيّادين والرعاة في تجوالهم، قبل استقرارهم في أراضٍ زراعيّة تنبت الشمس بذارها. والقمر، على خلاف الشمس التي تملك شكلاً ثابتًا لا يتغيّر، يتعرّض لتبدّلات أساسيّة تمسّ كيانه الإلهيّ. فهو يولد وينمو ويكبر ثمّ يغرق في الظلام أو الموت، ليعود إلى الحياة مجدّدًا، لهذا اعتبر مقياسًا زمنيًّا. وما زالت الأمم التي تنتمي إلى ثقافة ودين يعودان إلى حقبة الصيد والرعي تعتمد روزنامة قمريّة.

تشتقّ عبارة «مامي» (mâmi)، أنا أقيس، في اللغة السنسكريتيّة القديمة، من لفظة «مه» (me) التي يشتقّ منها أيضًا اسم القمر «ماس» (mâs)[٢٦]، وكلمة «أرّخ» العربيّة من يرخ أو أرخ، اسم القمر في اللغة الكنعانيّة، لتعريف الوقت أو للدلالة على فعل تدوين أحداث عبر بها الزمان. أمّا إيزيس، الاسم الذي، بحسب ديودوروس أعطي للقمر في مصر، فهو يعني «العتيقة»، مشيرًا إلى ولادة القمر الأزليّة[٢٧].

نجد القمر في أحد نصوص أوغاريت (RS 19.39, 16) تحت شكل «ي ر خ»، ملحقًا به لقب «ج ج ن»[٢٨] الذي يرد أيضًا في أسطورة كرت

---

(٢٤) Cf.LAGRANGE, *op.cit.*, p.129.

(٢٥) أنظر تكوين ١٤: ٥؛ يشوع ٩: ١٠؛ ١ مكابيين ٥: ٤٣+.

(٢٦) ELIADE, *op.cit.*, p.139.

(٢٧) EUSÈBE, *op.cit.*, I, 9, 4

(٢٨) VIROLLEAUD, «Fragments mythologiques et liturgiques», in *Palais royal d'Ugarit*, 5, 1965, p.3 - 4;

(II K 6: 26) بمعنى صوت داخليّ، وحي[٢٩]، وملحقة به عبارة «ل ر ج ث هـ» (RS 24.244, 26) التي تدلّ على اتّجاه نحو موقع ما يدعى «ل ر ج ت»[٣٠]، ومع لفظة «ك س أ» (RS 24.271, A6)[٣١] التي، على مثال شبيهتها العبريّة כֵּסֶא أو כִּסֵּא، تعني البدر[٣٢]، ومع «ك ث ي» تحت الشكلين «ي ر خ ك ث ي» (RS 24.246, A 14) و«ي ر خ م ك ث ي» (RS 24.271, A 7)[٣٣] التي يعتبرها كاكوْ (CAQUOT)، في أحد أبحاثه في مجلّة سيريا (Syria) لقبًا إثنيًّا يدلّ على المكاشيّين، الذين يؤلّفون شعبًا هندو ـ أوروبيًّا حكم بابل قرونًا من الزمن في وقت ازدهار أوغاريت، خاصّةً أنّه يُذكر في اللوحة الطقسيّة (RS 24.271) قبل «ث ك م ن» المرادف للإله «شوقامونا» (Šuqamuna) حامي السلالة الكاشيّة في بابل[٣٤]. أمّا إذا اعتبرنا لفظة «ك ث ي» ساميّة، فيمكننا عندئذٍ مقارنتها بالكلمة العبريّة כֵּתֶה التي تعني «اكسى شحمًا، سمنَ» والعربيّة «كثيٌّ» أي رجل ممتلئ[٣٥]، فتدلّ بذلك على قمر مكتسٍ، مكتمل.

---

(٢٩) Cf.VIROLLEAUD, «Le roi Keret et son fils (II K), poème de Ras Shamra», in *Syria*, 23, 1942 - 1943, p.2; HERDNER, *CTA*, n° 16; CAQUOT, SZNYCER, HERDNER, *op.cit.*, p.571 + (V) (ggn).
وفي مزمور ١٦ : ٧ب، اعتبرت الكليتان مصدر هذا الوحي.

(٣٠) Cf.VIROLLEAUD, *Ugaritica*, V, 1968, p.565, 570; CAQUOT, «Nouveaux documents ougaritiens», *Syria*, 46, 1969, p.246.

(٣١) VIROLLEAUD, *op.cit.*, p.580, 584; TARRAGON, *op.cit.*, p.161

(٣٢) قرجمان، مادّة «כֵּסֶא, כִּסֵּא»، في قاموس عبريّ ـ عربيّ، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٠؛
أنظر أيضًا مثل ٧: ٢٠؛ وفي المزمور ٨١: ٤ ذكرت لفظة כֵּסֶא، يدو، بموازاة חֹדֶשׁ، شهر.

(٣٣) VIROLLEAUD, *op.cit.*, pp.584, 585, 594, 595; HERDNER, CTA, n° 34, l. 19; TARRAGON, *op.cit.*, p.161.

(٣٤) CAQUOT, *op.cit.*, p.263 - 264.

(٣٥) أنظر قرجمان، مادّة «כֵּתֶה»، في المرجع المذكور؛
GESENIUS, «כֵּתֶה» in *BDB lex.*, p.505

نجد القمر أيضًا، تحت شكل ياراخ أو إراخ، في تركيب أسماء الأعلام في مدينة ماري[٣٦] حيث يبدو أنّه يدخل في مجمع آلهة الأموريّين[٣٧]، وتحت شكل 𐎗𐎓𐎗 (يرح) في نقش قره تيپه الكنعانيّ[٣٨]. غير أنّ لفظة 𐎗𐎓𐎗 في النقوش الكنعانيّة الأخرى لا ترد إلّا بمعنى «شهر»[٣٩].

نقع في أوغاريت على اسم آخر للقمر هو «ن ك ل» (نيكال)، خاصةً في لوائح التقادم الطقسيّة الموضوعة باللغة الحوريّة[٤٠] وهو مشتقّ من اسم الإلاهة السومريّة «نين ـ غال» (Ningal) أي «الإلاهة العظيمة»[٤١] زوجة سين ـ كوشوخ (Sin-Kušuḫ)[٤٢] الذي قد يعني «القمر الكاشيّ»، خاصّةً أنّ سين هو إله القمر في بابل. فهل تزوّج القمر نفسه؟ في الواقع، لدينا في أوغاريت لوحة ميثولوجيّة تحكي قصّة زواج القمر «نيكال ـ إيو» الأنثى من القمر الذكر «ي ر خ»[٤٣]، التي قد تحمل في خلفيّاتها وقائع تزاوج ثقافتين، واحدة رافديّة عبدت الإلاهة نيكال وأخرى ساميّة غربيّة عبدت الإله يارخ. وفي مكتبة إبلا وثائق تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وهي كناية عن معاجم لغويّة وضعت فيها مفردات سومريّة إلى جانب مرادفاتها الساميّة الإبلائيّة، تشير إلى تزاوج

(٣٦) Cf. CAQUOT, «Remarques sur la langue et le panthéon des Amorites de Mari», extrait des *Annales archéologiques de Syrie*, n 2, tome I, 1951, p.223 - 224.

(٣٧) Ibid., *Hist. des rel.*, p.316.

(٣٨) DONNER-RÖLLIG, *KAI*, 26 A IV 3. CV 7.

(٣٩) Cf. «𐎗𐎓𐎗» in *Ibid.*, III, S.10.

(٤٠) أنظر النصوص الحوريّة:

RŠ 24.254, 8; 255, 6; 261, 22; 295, 12 in LAROCHE, «Documents hourrites de Ras Shamra» in *Ugaritica*, V, 1968, p.507, 509, 499, 500, 508.

(٤١) PETIT, *op.cit.*, p.129

(٤٢) Ibid., p.541.

(٤٣) Cf. VIROLLEAUD, «Hymne phénicien au dieu Nikal et aux déesses košarôt», in *Syria*, 17, 1936, Pl. XXV; HERDNER, *CTA*, n° 24 (NK); CAQUOT, SZNYCER, HERDNER, *op.cit.*, pp.383 - 397.

ثقافيّ سومريّ ـ إيلاتيّ جرى في ذاك العصر في بلاد الساميّين الشماليّين الغربيّين.

ومع الامتداد الآراميّ، انتشرت عبادة الإله سين، حيث أصبح يكرّم في كلّ من أور وحران وبابل[٤٤]. نجده مثلاً، في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، على نصب الملك 𐤁𐤓 𐤓𐤊𐤁 (برّ ركوب) الآراميّ في زنجرلي، مصوّرًا بشكل هلال مع عبارة 𐤁𐤓𐤀 𐤁𐤏𐤋𐤄𐤓 التي تعني «ربّي بعل حرّان»[٤٥]. وقد دعي في المنطقة نفسها بالاسم الرافدي نيكال، حيث ورد في نقش نيراب[٤٦]، إلى جانب القمر الآراميّ 𐤎𐤄𐤓 (سهر) وابنه 𐤍𐤔𐤊 (نوسكو)[٤٧] وباسم 𐤍𐤊𐤓 (نيكار)[٤٨] الذي ليس سوى تحريف لفظيّ لنيكال.

غير أنّ الملفت للانتباه هو هذا المزج بين رمزيّ الخصب، الهلال وقرني الثور أو البقرة، الذي جعل رمزًا للإلاهة المصريّة حاطور والرافدية عشتار[٤٩] والكنعانيّة عشترت، ممّا جعل القمر، كما تشير إلى ذلك الميثولوجيا الأوغاريتيّة، يرتبط بالإخصاب[٥٠]. ففي مصر حيث دعي القمر إيزيس، زُيّنَ بقرنين رمزًا للشكل الذي يأخذه إبّان نموّه، وللعجلة التي كرّسها له المصريّون[٥١].

---

(٤٤) الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، طبعة ثانية. دار النهار للنشر. بيروت، ١٩٧٩، ص ٩٥.

(٤٥) DONNER-RÖLLIG, *KAI*, 218.

(٤٦) تقع نيراب على بعد ٧ كلم إلى الجنوب الشرقيّ لمدينة حلب.

(٤٧) DONNER-RÖLLIG, *KAI*, 225, 9; 226, 9.
نجد اسم القمر الآراميّ 𐤎𐤄𐤓 أيضًا في:
Ibid. 202 B 24; 225, 2; 226, 1; 258, 5; 259, 4.

(٤٨) Cf. *Ibid.*, 222 A 10.

(٤٩) Cf. ELIADE, *op.cit.*, pp.145 - 147.

(٥٠) PETIT, *op.cit.*, p.130; HERDNER, *CTA*, n° 24 (NK) 22; CAQUOT, SZNYCER, HERDNER, *op.cit.*, p393+(S).

(٥١) EUSÈBE, *op.cit.*, I, 9, 4.

الشمس

لقد كان حلول الزراعة محلّ الصيد عاملاً هامًّا في حلول الشمس كسيّد أعظم للسماء محلّ القمر[٥٢]. فأصبح باستطاعة الإنسان الساميّ، بعد استقراره، التأمّل بالشمس ومراقبة ارتباطها بنموّ المزروعات وتتابع الفصول؛ فهي التي تحيي البذار المدفونة في الأرض وتغوص في عالم الأموات كلّ ليلة، دون أن يمسّها الموت، فتُنهض معها مَن تشاء. نتحسّس حضورها المحيي هنا في كلام القدّيس أقليمندس الرومانيّ[٥٣]، عن القيامة التي رمز إليها بالليل الذي ينام والنهار الذي يستيقظ، وبالبذار التي تسقط في الأرض فتنحلّ ثمّ تقوم بعناية الربّ العظيمة، وبـ«العجيبة الغريبة»، بحسب تعبيره، التي حصلت في البلاد الشرقيّة وهي موت وانبعاث طير الفينيق الذي يطير إلى هيكل الشمس في هيليوپوليس[٥٤].

نقرأ اسم الشمس «سيفيش» (Sipiš) التي تدعى في السومريّة «أوتو» (UTU) في وثائق مدينة إبلا التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، حيث كانت تعتبر مع الإلهيين آدا وكورا أو مع آدا وكاكاب[٥٥]، كافلةً للمعاهدات الدوليّة والقرارات الهامّة[٥٦]. وكأنّ عناصر الطبيعة، الشمس، الرياح والكواكب تضمن بحضورها الدائم تحقيق العدالة

---

(٥٢) لقد غدت الشمس رمزًا للإله الأعظم في غالب الثقافات السامية المستقرّة، أنظر ديسو، المرجع المذكور، ص ١٤١ـ ١٤٢.

(٥٣) القدّيس أقليمندس الرومانيّ هو أحد آباء الكنيسة الكبار، كان أسقفًا لروما من سنة ٩٢ حتّى سنة ١٠١م.

(٥٤) هيليوپوليس لفظة يونانيّة تعني «مدينة الشمس»؛ أنظر الياس مقرّض، الآباء الرسوليّون، سلسلة آباء الكنيسة، ١، منشورات النور، بيروت، ١٩٧٠، ص ٣٤ـ ٣٥.

(٥٥) آدا هو إله العاصفة هدد ـ بعل. أمّا الإلاهة كورا فقد تكون مرادفة لكاكاب (الكوكب أو النجمة).

(٥٦) Cf. G. PETTINATO, *Ebla un impero Inciso nell 'argilla*, Arnoldo Mondadori, Milano, 1979, p.268.

والحقّ، فلا يغيب عن عيونها الساهرة أيّ متمرّد أو خائن.

نجد هذا الحضور الساهر للشمس في نشيد أخناتون فرعون مصر (١٣٧٢ـ ١٣٥٤ ق.م.) للإله الأوحد آتون، قرص الشمس، الذي قد يكون من أصل شرقيّ، ربّما حوريّ، أُدخِلَ بلاد النيل بتأثير من امرأة فرعون الحوريّة وهو يعني بلغتها «الأب»، ممّا يتماشى مع الصفات المعطاة له في النشيد(٥٧).

أمّا في نصوص أوغاريت فعبارة «إن ـ أت ن» الحوريّة ترادف «إل ـ إب» الكنعانيّة التي تعني «إيل ـ الأب» أو «الإله الأب»(٥٨). وقد تحوّل اسم الإله إيل، أو «هيل» بحسب رأي الأب مرتين اليسوعيّ الذي يستشهد بسزقيوس إلى هيليوس اليونانيّ الذي يعني الشمس. من هنا يعتبر هذا الأخير في شرحه لديوان ورجيل المعروف بالأشعار الإينيّة أنّ الجميع في تلك الجهّات (السوريّة) يعبدون الشمس(٥٩).

تعتبر الشمس في لغة أوغاريت أنثى، على مثال شمس العرب، وتُسمّى «ش ف ش»، وهي تظهر في النصوص الطقسيّة والتقويّة بشكل أكثف ممّا تظهر في الميثولوجيا. ففي اللوحة (RS 24.251) التي لا يُمكن التشويه فيها من كنه مجمل النصّ، تبدو الشمس كأنّها، مع معاونيها الآلهة، تجني الحمّة أو السمّ، لتبدّد الغيوم الضخمة التي تحوم فوق وجه الأرض. ثمّ تتّجه إلى مدينتها «أزد» التي تدعى «ع ر. ق د م» أي «مدينة المشرق»(٦٠).

أوّل ما يستنتج من هذه اللوحة، هو أنّ الشمس، شفش، تشكّل الشخصيّة الرئيسة، بينما لا تشكّل الآلهة: إيل، حورون، بعل، داجان،

(٥٧) Cf. Irmgard WOLDERING, *Egypte*, trad. Louise SERVICEN, L'art dans le monde, ALBIN MICHEL, Paris, 1982, p.118 - 119.

(٥٨) LAROCHE, *Ug.*, V, p.523, n° 2 et p.524.

(٥٩) مرتين اليسوعيّ، المرجع المذكور، ص ٣٥٨+ (٢).

(٦٠) Cf. VIROLLEAUD, *op.cit.*, p.p.574 - 580.

عنت، عشرت، يارخ، رشف، إلخ... سوى آلهة ثانويّة تلعب، بحسب ترجمة ڤيرولّو للنصّ، دور المعاونين. ثمّ إنّ مديتها «أزد» المدعوّة «ع ر. ق د م»، تشير إلى وجهة الإشراق. وقد أُدمج بالشمس، كلّ من الآلهة الرئيسة في «مجامع آلهة» (panthéons) الساميّين الشماليّين الغربيّين، فكانت وجهة مذابحهم تبتى باتّجاه مشرق الشمس. وما تزال الهندسة القديمة للكنائس الشرقيّة ملتزمة بهذا الاتّجاه. وانطلاقًا من وقفة المؤمن الساميّ الغربيّ في معبده تقيم سبب تسمية الجهات الأربع على النحو التالي: «𐎒𐎍» وباللهجة اللبنانيّة «قدّام» تعني «أمام» و«شرق»، أي الجهة التي أمام وجه المؤمن. و«𐎌𐎍» (يمين) تعني «الجهة اليمنى» و«الجنوب»، فإذا كان وجه المؤمن باتّجاه الشرق تصبح يمناه ناحية الجنوب. أمّا الشمال فيقع إلى يسار المؤمن، من هذا المنطلق تدلّ اللغة اللبنانيّة المحكيّة إلى اليسار بلفظة «شمال».

نقع في أوغاريت على نصّ آخر[٦١] (RS 24.244) هو بمثابة رقيمة موجّهة خاصّةً للشمس، مؤلّفة من لازمة وأحد عشر مقطعًا يرد فيها ذكر بعض آلهة أوغاريت مع أماكن إقامتها. أمّا الشخصيّة التي تلعب دور الوسيط بين البشر والشمس فهي ابنتها «أمّ. ف ح ل. ف ح ل ت»، يترجم ڤيرولّو اسمها بـ«أمّ الفحل، النرسة» (la mère de l'étalon, la cavale)[٦٢]. ويعتبر أندره كاكو (André CAQUOT) في بحث له في مجلّة سيريا (Syria) أنّها قد تماثل خيل الشمس الواردة في ٢ ملوك ٢٣: ١١ وفي بلاد ما بين النهرين حيث كان يطلق على خيل «شمش» أسماء علم. فكانت مهمّة الابنة أن تكون صلة الوصل بين إنسان يريد اتّقاء سمّ الأفعى والشمس، فتعمل هذه الأخيرة بدورها على إيصال الدعاء إلى أماكن سُكنى الآلهة الواردة أسماؤها في النصّ[٦٣]. هذا لأنّ الشمس تستطيع الوصول بأشعّتها إلى جميع أنحاء العالم، حتّى إلى أعماق

(٦١) Ibid., n° 7, p.p.564 - 574.

(٦٢) CAQUOT, *Syria*, 46, 1969, p.242.

(٦٣) Cf. *Ibid.*, p.242 - 243.

الجحيم! ويمكنها بالتالي أن تتصل بعالم الآلهة.

يُلفت النظر هنا إلى المركبة النارية التي صعد فيها إيليّا التشبي إلى السماء[٦٤]. كأنّها وسيلة النقل إلى الشمس حيث مكان الخلود. هذا ما توحيه لنا نيران المركبة وفحوى الاعتقاد بأنّ إيليّا ما زال حيًّا.

نقرأ اسم شفش أيضًا، في السطر الثاني عشر من الوجه الأوّل للائحة بأسماء بعض الآلهة (RS 24.246, A, 12)، ملحقةً به لفظة «ف ج ر»[٦٥] التي قد تعني ذبيحة، أو ربّما «جسد» إذا قورنت باللفظة الآرامية פגרא (فجرا).

هذا ما نجده في لوحات أوغاريت الطقسيّة والتقويّة. إلّا أنّ شمش في النصوص الميثولوجيّة والأسطوريّة لا تلعب أكثر من دور الشمس الطبيعيّة. إنّها «الشمس» بكلّ معنى الكلمة أكثر ممّا هي إلاهة بمفهومنا للألوهة. حمّلتها الميثولوجيا لقب «ن ر ت. إ ل م»، نيّرة الآلهة أو النيّرة الإلهيّة، فكانت وسيطة التفاهم بين الآلهة. ولأنّها تغوص كلّ ليلة في باطن الأرض، حيث مثوى الأموات، عرفت «الرفائيم»، أي الأخيلة، وهي أشباح الموتى المتألّهة. ولهذا السبب عينه كان بإمكانها أن تعيد عند شروقها الصباحيّ، إلى عالم الأحياء، الإله الذي ابتلعه الموت، كما تحيي البذار التي دفنت في الأرض. وكأنّ الإيمان العتيد بقيامة الأجساد سيرتكز على تأمّل الإنسان بعمل الشمس المحيي والمخصب في الطبيعة.

ثمّة في النقوش الكنعانيّة قنجد رسمًا مؤلّفًا من أسطوانة شمسيّة وسط قرني الثور، كدلالة إلى الألوهة، كالذي يظهر على قطعة التمثال المكتشف في الصرفند (القرن السادس أو الخامس ق.م.) وعلى الرسم المكتشف في «في» جنوب طرابلس (الحقبة الفارسيّة)، أو ضمن

(٦٤) أنظر ٢ ملوك ٢: ١١.

(٦٥) VIROLLEAUD, *op.cit.*, p.594 - 595.

التصاوير على صحن البرونز العائد إلى أولمبيا على منضدة حيث تُسكب عليه تقدمات تدلّ إلى الألوهة والخصب، أو على الختم الذي يحمل اسم «أبي ـ بعل» نُقش على رأس صولجان يحمله إنسان بيده اليسرى بينما بيده اليمنى يعطي البركة[٦٦] ويظهر بشكل كثيف في نقوش مدينة قرطاجة والمستوطنات الفينيقيّة الأخرى في أفريقيا الشماليّة[٦٧].

تعتبر الشمس في النصوص الكنعانيّة والآراميّة ذَكَرًا وتدعى 𐤔𐤌𐤔 (شمش). نجدها في أحد نقوش قره تيبه الكنعانيّة، التي تعود إلى العام ٧٢٠ ق.م.[٦٨] إلى جانب الإلهين 𐤁𐤏𐤋 𐤔𐤌𐤌 (بعل السموات) و𐤀𐤋 𐤒𐤍 𐤀𐤓𐤒 (إيل خالق أو مالك الأرض)، حيث تدعى 𐤔𐤌𐤔 𐤏𐤋𐤌 أي الشمس الأبديّة. هذا ما يبدو لأوّل وهلة، خاصّة أنّ واو العطف تجمع بين هؤلاء الآلهة الثلاثة. غير أنّي أعتقد أنّ 𐤁𐤏𐤋 𐤔𐤌𐤌، سيّد السماوات، هو نفسه 𐤀𐤋 𐤒𐤍 𐤀𐤓𐤒، الإله الذي يملك الأرض، وقد أعطي لقب 𐤔𐤌𐤔 𐤏𐤋𐤌، الشمس الأبديّة، تُضاف إليه عبارة 𐤅𐤁𐤋 𐤓𐤓 𐤁𐤍 𐤀𐤋𐤌، أي «وكلّ جماعة، أو ذرّيّة، بني الآلهة». خاصّةً أنّ سنخونياتن يذكر في الكوسموغونيا الفينيقيّة أنّ جينوس وجينيا (Γένος καὶ Γενεάν)، أوّل سكّان فينيقيا، عندما حلّ جفاف عظيم، «رفعا أيديهما نحو السماء، بدعاء للشمس، لأنّهما اعتبراه إلهًا والسيّد الأوحد للسماء، فسمّياه بعل شمين (βεελσάμην) الذي يعني لدى الفينيقيّين سيّد السماء، ولدى الإغريق زوس»[٦٩].

وفي نهاية نصّ قره تيبه المذكور، يبتغي أزتود، صاحب النقش،

---

(٦٦) MOSCATI, *op.cit.*, p.85 - 86, fig. 8, p.91, fig. 11, p.109, fig. 22, p.113 - 114, fig. 26.

(٦٧) MAZEL, *op.cit.*, p.193.

(٦٨) أنظر كميل البناني، النصوص الفينيقيّة في قره تيبه، منشورات الجامعة اللبنانيّة، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٦ـ ٢٨، ٩٠؛
Cf. DONNER-RÖLLIG, *KAI*, 26 A III 19.

(٦٩) EUSÈBE, *op.cit.*, I, 10, 7.

أن يستمرّ اسمه للأبد، على مثال اسم الشمس والقمر[٧٠]. غير أنّه لا يؤكّد ألوهيّتهما بخلاف سنخونياتن وديودورس.

يرد هذا المثلّث الإلهيّ نفسه، مضافةً إليه مجموعة الآلهة، في نقش آراميّ لـ«زكير» (זכר) ملك حماه ولعش، على الشكل التالي: «بعل שמין وإل [...] وشمش وإلهي [...] وإلهي שמי [ן وإلهي] ארק[٧١]. أي «سيّد السماوات وإيل أو الإله [مالك الأرض (؟)] والشمس والقمر وآلهة السما[وات وآلهـ]ـة الأرض».

أمّا النقش الآراميّ، الذي اكتشف في Kesecek köyü في آسيا الصغرى والذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، فنجد فيه تأليهًا واضحًا لهذين النيّرين، وقد جعل القمر قبل الشمس[٧٢] على خلاف ما نجده في النقوش الأخرى. هل يعود ذلك لأهمّيّة عبادة القمر لدى الآراميّين، مع العلم أنّ النصّ الآراميّ السابق (KAI 202 B 23 - 26) يقدّم الشمس على القمر؟ من الواضح جدًّا الشبه بين نقش قره تيبه الكنعانيّ وزكير الآراميّ حيث يبدو أنّ هذا الأخير يتأثّر إلى حدّ بعيد بالعبادة الكنعانيّة، التي قدّمت الشمس على القمر. بينما حافظ هذا النقش الأخير على أهمّيّة القمر كالمعبود الأوّل لشعب آراميّ ما يزال محافظًا على ثقافة بدويّة.

أمّا التأليه الواضح للشمس שמש فنجده ضمن إطار الثقافة الهلّينيستيّة: كأن نقرأ مثلًا في النصّ الآراميّ ـ اليونانيّ: הברתא שבא למלכין בר שמיה משמש די קריב מן עבדא [ח]רין לשמש אלהא הנחו AI על חיז[ן] לעלם[٧٣]. أي ذكر صالح لملكيون بن شميثي من

---

(٧٠) «שם זוהר רבן לעלם בם שם שמש וירח»
DONNER-RÖLLIG, *KAI*, 26 A IV 2 - 3 et CV 6 - 7.

(٧١) *Ibid.*, 202 B 23 - 26.

(٧٢) «שמש וירח»
Ibid., 258, 5.

(٧٣) DU BUISSON, «Un bilingue araméen-grec de l'époque parthe à Doura-Europos», in *Syria*, 19, 1938, p.147 - 148.

محوزا الذي قرّب من هذا العمل للإله شمش مئة دينار عن حياته للأبد.

وفي أوائل القرن الخامس قبل الميلاد رفع نونوس (NONNOS) صلاةً للشمس إلاهة صور، المدمجة بملقرت ـ هرقل، قائلاً: «يا ملك النار ومبدأ العالم هرقل أستروقيتون أيّها الشمس المنظّم الأزلي لحياة البشر أنت الذي تدور جميع الأقطاب بقرصك المحرق وترجع في دائرة الاثني عشر شهرًا من السنة ابنة الزمن. فمن عجلتك ينزل العمر وتتكوّن الشيبة والشيخوخة معًا وبميلاد سام تصدر صورة مثلّثة للقمر المحسن الذي ليس له أمّ. بل من نيرانك المتلألئة يشعل نيرانه المنعكسة عندما يجمع في كرة قرني ثور متعوجين. أنت عين الهواء الذي تنيره وفي عجلتك التي تجرّها أربعة رؤوس تأتي بالشتاء بعد الخريف وبالصيف عقب الربيع. وإذا ما هجمت على الليل بأنوارك يهرب عن عرشه متى ظهر نورك المفضّض وبشّرت بالنور رؤوس خيلك الجامحة من ضرب سوطك. إنّ مرجة السماء الواسعة بعد أن تكون مظلمة قبل إشراق لهيبك تترصّع عند ظهور ضيائك بكواكب أكثر لمعانًا. وإذا تبلّلت بمياه الأوقيانوس الشرقيّ حرّكت ندى شعرك الخصيب ونثرت مطرًا غزيرًا وفرّقت على الأرض المخصبة شراب الندى الوطنيّ وإذا صبّيت في الأثلام المولدة مواهب كرس تنمي وتسمّن السنابل تحت قرصك. يسمّونك بعل عند الفرات وأمون في ليبية وآبيس في النيل وكرون في بلاد العربيّة ويوبتير (المشتري) في أشور وعلى هيكلك المعطّر يأتي الطير فينيق بعد آلاف من السنين حاملاً بمخالبه المعوجّة أغصانًا طيّبة الرائحة. وعند نهاية حياته يجدّد مبدأها هو بنفسه ويولد نفسه بمفرده، فهو صورة الزمن الذي يستأنف ويتجدّد. ينعتق من شيخوخته ويتّخذ من اللهيب حياة جديدة. أنت بيون الذي يخفّف الألم أو الأيتر الموشيّ المدعو أستروقيتون لأنّ قمصانك المرصّعة بالنجوم تنير السماء في ظلمة الليل. أعرني أذنًا صاغية واستجب لصلاتي»[٧٤].

---

(٧٤) مرتين اليسوعيّ، المرجع المذكور، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ وهو ترجمة للنصّ اليونانيّ الوارد في: NONNOS DE PANNOPOLIS, *Les dionysiaques*, XL, 369 - 410.

تأتي هذه الصلاة في ختام البحث حول ألوهيّة الشمس، لتجمع فيها كلّ ما قيل على هذا النيّر العظيم. إذ نقع على صورة المركبة الناريّة والخيل وقرص الشمس داخل قرني الثور وعلاقة الشمس بالأخصاب وقصّة قيامة طير الفينيق رمز تجدّد الحياة... وفي الختام، أعتقد أنّ النجمة، دينجر (الألوهة)، آنو (السماء) أو إلّو (الضياء)، أو النجمة الكنعانيّة المثمّنة الإشعاعات كانت تشير إلى الشمس ممّا يجعلها أوّل رمز للألوهة في الثقافات المستقرّة، استمرّت فكانت عرش الإله الأوّل الذي توارثته آلهة شعوب بلاد كنعان.

صدر حديثًا عن دار المشرق